الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

١ ـ حسن العطار الشاعر

أجمع الذين ترجموا للعطار أو تناولوه بشيء من الدراسة والتعريف على أنه كان شاعراً . ولابد أن نضع الرجل فى مكانه الصحيح من شعر ذلك العصر الذى عاش فيه . فلو أننا قسناه بمعايير زماننا وما طرأ عليها من تجديد فى النظر إلى الشعر لظلمنا الرجل ظلماً بيناً . والحق أن العطار كان ـ كما لاحظ تلميذه الأديب الشيخ مصطفى بكرى الساعاتى ـ ينحو فى الشعر منحى أهل الأندلس فى قصائدهم ، ولم يحد عن طريقتهم التى بها تفوقوا وانفردوا عن سواهم[1] .

ولم يكن العطار فى جريه على طريقة الأندلسيين مخالفاً لأهل عصره والعصر الذى سبقه . فإننا نلاحظ أن شعراء القرن الحادى عشر الهجرى والثانى عشر الهجرى كانوا يعارضون شعراء الأندلس فى نظم الموشحات ، فالشاعر إسماعيل الطهورى المصرى الموسيقى الملحن والمتوفى سنة ١٢١٢ هـ عارض موشحة لسان الدين بن الخطيب[2] . وقد سبقت الإشارة إلى موشحة العطار التى عارضها رفيقه الشاعر إسماعيل الخشاب بموشحة فى ديوانه . كما أن له بعض موشحات روى طرفاً منها فى كتابه حاشية العطار على الخبيصى ، صفحة ٢٥٧ .

ولم يكن العطار راضياً عن المستوى الذى هبط إليه الشعر العربى فى عصره ، فقد عاب عليه هبوطه إلى المدح الكاذب ، حتى ترفع الشعراء الحقيقيون عن نظم المدائح وتجافوا بأنفسهم عنها ، لما فى ذلك من انحطاط القدر . ولقد صور لنا هو بقلمه هذه الظاهرة بقوله من رسالته الجليلة إلى تلميذه الشيخ مصطفى

---

(١) مجلة روضة المدارس ـ عدد ١٨ ص ٣٦٩ .

(٢) تاريخ الجبرتى ـ طبعة لجنة البيان العربى جـ ٤ ص ٢٧٥ .

بكرى : (. . ولما تعاطى الشعر بعض الخاملين . ليتوصل به إلى امتداح ما ليس حقيقاً بالمدح ، واستمناح ما استرشاح الماء من الصلد أهون ما يطلبه منه من المنح ، تسفل قدره ، وانحط أمره ، وتجافى بنفسه عن نظم المديح ، كل ذى لب رجيح ، وطبع صحيح ، لما رأى فى ذلك من الإزراء وانحطاط القدر ، وتحمل إثم الكذب ، والوقوف مواقف الذل ، وترقب بارق خلب المواعيد ، والطمع فى استرشاح الصم الجلاميد . .)[1] .

ولقد كان فى حسن العطار رقة طبع ، وسلامة ذوق ، ورهافة حس ، فآثر شعر الغزل والنسيب والتشبيب . وعبر عن ذلك بقوله فى رسالته : (وأنا أرجو أن لا يكتب إلا ما لطف من النسيب ، وعذب من التشبيب) . وكان يضطر بعض الحين — بحكم الملابسات والظروف — إلى أن ينظم فى غير الغزل ، وخاصة فى المدح — كمدحه لمحمد على — ولكنه يعترف لنا فى رسالته ، بل يقسم بالله بأن غير النسيب فى شعره لم يكن يخطر إلا قسرا ! (وإن أتيت بشىء منه فإنى معترف بأنى جئت شيئاً إمرا !)[2] فكأنه كان مكرهاً على أن يركب من مراكب الشعر الصادق ما ليس من طبعه ، ويقول فى هذا : (مكره أخاك لا بطل) .

وإقلال العطار من شعر المديح إلا لضرورة قصوى — كالضرورة التى ألجأته إلى مدح محمد على — يدل على أصالة طبع هذا الرجل ، وصدق نفسه ، وترفعه عن طلب ما فى أيدى الناس ، وقد عبر لنا عن إعجابه بأبيات عمران ابن حطان التى قالها مخاطباً الفرزدق حين سمعه ينشد شعره فى المديح :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه ... وتسمى البخيل باسم الجواد

أما شعر الرثاء فما ركبه العطار إلا مجبراً بعد إلحاح من طالب لا يستطيع

---

(٣) مجلة روضة المدارس — عدد ١٩ — ص ٣٩٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

دفعه إلا بإجابته إليه ، كما قال فى رسالته لتلميذ مصطفى بكرى . على أنه فى بعض مراثيه المأثورة كان فيه براعة الالتفات إلى صفات المرثى ، حتى ولوكانت موضع نقد من الناس . فقد كان السيد أبو الأنوار السادات معروفاً بالتعاظم والتفاخر فى زمنه ، فلما مات نظم العطار فى رثائه قصيدة استهلها بالإشارة إلى ما كان عليه من التعاظم والتفاخر ، فقال فى الشطر الأول من مطلعها : سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر [١] ! ومن مراثيه الصادقة قصيدته فى رثاء شيخه محمد عرفة الدسوقى التى يقول فيها :

أحاديث دهر قد ألمَّ فأوجعا ... وحل بنادى جمعنا فتصدعا

لقد صال فينا البين أعظم صولة ... فلم يخل من وقع المصيبة موضعاً

ولم يهج العطار إلا مضطرًّا فى حالات نادرة ، ويصرح لنا هو بقوله : (وأما الهجاء فلم ينفق لى سوى أبيات وقعت عن سهو ، وقد لعبت بها — ولله الحمد — أيدى الإزالة والمحو)[٢] . وتراه هنا كالمعتذر عن هذا الهجاء ، ويحمد الله أن يد الإزالة قد محته . على أن الزمان الذى لا يضيع عنده شىء قد حفظ لنا بعض هجائه ، فهو يهجو شخصاً بقوله :

أنى لأكره فى الزمان ثلاثة ... ما إن لها فى عدها من زائد

قرب البخيل ، وجاهلا متفاضلا ... لا يستحى ، وتوددا من حاسد

ومن البلية والرزية أن ترى ... هذى الثلاثة جمعت فى واحد[٣] ...

على أن موقف الفرنسيين من مصر والمصريين فى أثناء حملتهم الغادرة قد حمل العطار على هجائهم بقوله :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم ... فى مصرنا بين حمار ، وخمار !

---

(١) تاريخ الجبرتى — طبعة بولاق — ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) روضة المدارس ص ٢٨ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٩ ، وكتاب الأزهر بين الماضى والحاضر ص ٦٧ .

وعن قريب لهم فى الشام مهلكة يضيع فيها لهم آجال أعمار ! [١]

وطبيعة الشاعر الرقيق الأصيل عند العطار قد حملته على أن يتأثر بالطبيعة فيصفها ؛ وهو وصف فيه من الصدق والتأثر ودقة الملحظ ما يدل على صفاء نفسه . ولا تزال تتردد فى سمع الزمان أبياته التى قالها فى وصف بركة الأزبكية ومنها قوله :

بالأزبكية طابت لى مسرات ولذ لى من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات [٢]

على أنه حين فر إلى أسيوط خوفاً من الفرنسيين لم يفته أن يصور هذه العاصمة الجميلة بقوله :

سقيا لأسيوط ذات الظل والشجر ومربع اللهو واللذات والزهر
منازل بصنوف العيش عامرة يلهو النديم بها فى مشتهى الوطر [٣]

وحين أقام العطار بدمشق أخذت بقلبه غوطتها ومحاسنها ومتنزهاتها ، فقال يصفها من قصيدة طائية :

بوادى دمشق الشام جز بى أخا البسط وعرج على باب السلام ولا تخطى
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهى تخطر فى مرط [٤]
كساها الحيا أثواب خطر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

وقد نظم حسن العطار فى أغراض أخر ، فهو يهنئ فى بعض المناسبات ،

---

(١) الجبرتى — طبع لجنة البيان ج ٥ ص ١٨ .

(٢) روضة المدارس عدد ١٩ ص ٦ وإنشاء عطار ص ٦١ ، ومصر فى القرن الثامن عشر ص ٥١ ج ١ .

(٣) إنشاء العطار — ص ٥٨ .

(٤) الآداب العربية لشيخو ج ١ ص ٥١ ، والخطط التوفيقية ج ٤ ، ومجلة المجلة عدد رقم ٩٩ .

كتهنئته لنقيب أشراف القدس بعودته إلى النقابة بعد أن أبعد عنها ، فيقول :

الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله
وآض روض الفضل ذا بهجة من بعد ما أشفق من محله
قد يتساوى اثنان فى منصب وإنما التفريق فى سبله
ومفخر المرء بأفعاله لا بالذى قد مات من أهله[1]

وهو ينظم شعراً تاريخيًّا ينقش على قاعة الجلوس فى بيت الأمير المملوك محمد بك الألفى يقول فيه :

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخا سماءُ سعاداتى تجدد بالألفى[2]

على أن أرق ما فى شعر حسن العطار هو غزله الذى يقول فى بعضه :

أعن المحب ثناك عنه وجيبه أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه ؟
هجر الكرى لما هجرت ، وواصلت ه شجونه وازداد فيك نحيبه
لم يجن ذنباً فى هواك ، وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه[3] ...

ويقول فى بعضه الآخر :

إلى متى أشكو ولم ترث لى ؟ أما كفى أن رق لى عذلى ؟ !
يا باخلا بالوصل عن عاشق بعسجد الأجفان لم يبخل
أنفق فى حر الهوى عمره وعن أمانيه فلا تسأل !

على أنه فى بعض مدائحه الشعرية القليلة كان يفتتح بالغزل تخلصاً إلى

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ .
(٢) تاريخ الجبرتى — طبعة بولاق — جـ ٤ ص ٢٨ ، وطبعة لجنة البيان جـ ٦ ص ٣٢١ .
(٣) إنشاء العطار ص ٥٤ .

المدح كما فعل فى مدحته لإبراهيم « باشا » .

وقد يبدو الغزل غريباً من عالم فقيه أصولى محقق كان شيخاً للأزهر ! ولكن ليس فى هذا غرابة من واقع الأحداث والتاريخ . فالشيخ عبد الله الشبراوى كان شيخاً للأزهر فى القرن الثانى عشر ، بل كان سادس شيوخه على ترتيبهم فى تولى المشيخة ، ومع هذا له القصيدة الغزلية الرقيقة التى يتغنى بها فى عصرنا هذا من أرق الحناجر الملائكية ، ومطلعها :

بحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد وأنت الأرب !
ولى فيك يا ها جرى صبوة ... تحير فى وصفها كل صب [1]

وكان بعض شيوخ الأزهر المتزمتين يتغزل فى شعره ، كالعلامة الشيخ محمد الأمير — أستاذ العطار — الذى يقول

أيها السيد المدلل ضاعت ... فى الهوى ضيعتى ، وأنسيت نسكى
يالك الله ! لا تمل لسوائى ... وتحكم ولو بما فيه فتكى !
وانظر الحق فى علو غناه ... كل شىء يمحوه غير الشرك [2] !

وكالعلامة النحوى الشهير الشيخ محمد الصبان الذى يقول :

وحق صبح المحيا مع دجى الشعر ... وجنة الخلد مع راح اللمى العطر
ومقلة بفنون السحر قد كحلت ... وقامة رشحتها خمرة الخفر
ما غير البعد عهدى فى الغرام ولا ... نسيت وداً مضى فى سالف العصر [3]

كما كان يتغزل بعض الشيوخ المتظرفين ، كالشاعر محمد شهاب الدين تلميذ صاحبنا العطار ، الذى شحن ديوانه بهذا الفن من الشعر ! فالعطار!

---

(١) ديوان الشبراوى ص ٨ ، ٩ . وكتاب الأزهر بين الماضى والحاضر — ص ٦٥ .
(٢) تاريخ الجبرتى — طبع بولاق جـ ٤ ص ٢٨٥ .
(٣) تاريخ الجبرتى — طبع لجنة البيان — جـ ٤ ص ٢٠٧ .

لم يخرج عن نهج شيوخه الكبار فى الغزل والنسيب ، كما لم يخرج تلاميذه المشايخ عن نهجه فى الغزل ، وعلى رأسهم الشاعر شهاب الدين !

بقى أن نقول كلمة عن ديوان حسن العطار . فنى ديوان الخشاب إشارة إلى أن بقية موشحة العطار موجودة فى ديوانه[١] . والجبرتى يقول فى خلال ترجمته للشيخ شامل الطرابلسى إن قصيدة العطار فى مدحه التى مطلعها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح سفير اللثام

مسطرة بديوانه[٢]. ويقول العطار عن نفسه : (ضاع منى بدمشق كراس من ديوان الشعر)[٣] . ويقول الأب لويس شيخو : (وله شعر رائق جمع فى ديوانه) . وينقل عنه فيليب طرازى هذه العبارة بنصها[٤] . وينقل هذا الكلام الأساتذة الزركلى ، وعمر رضا كحالة ، وعمر الدسوقى . ولكن الأستاذ المحقق أحمد الإسكندرى يقول فى المفصل : (ولم يجمع شعره فى ديوان خاص ..)[٥]. ونخلص نحن من هذه الأقوال التى تكاد تتعارض ، بأن ديوان العطار كان مجموعاً ، ولكنه ضاع بعضه فى حياته — كما يقول هو — وضاعت بقيته بعد وفاته .

على أن حديثنا عن العطار الشاعر لا ينسينا كلامه الدقيق الرقيق فى الشعر والوزن . فقد جرى على رأى القائلين بعدم اشتراط الوزن فى الشعر[٦] . كما أن كلامه فى التأثر بالشعر وتأثيره وحمارية طبع الذى لا يتأثر يدلنا على مبلغ إحساس هذا الشاعر وشاعريته . وحسبنا أن نحيل القارئ على كلامه فى هذا

---

(١) ديوان الخشاب ص ٣٤٥ .
(٢) الجبرتى — طبع اللجنة — ج ٥ ص ١٤٦ .
(٣) مجلة روضة المدارس ص ٢٨ عدد ١٨ .
(٤) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٢٩ .
(٥) المفصل ج ٢ ص ٣٣٥ .
(٦) العطار على الخبيصى ص ٢٥٧ .

الموضوع فى كتابه أو حاشيته على كتاب المنطق[١] .

ولن نغتبر سماء شاعرية العطار بمنظوماته فى العلوم ! وخاصة فى النحو : فيكفى أن يرجع القارئ إليها فى حاشيته على شرح الشيخ خالد فى النحو ، وذلك ضرورى لمن يريد أن يتوسع فى جوانب النظم عند هذا الشاعر الرقيق[٢] . . .

٢ – حسن العطار الناثر

يلفت حسن العطار نظرنا فى تطور أساليب التعبير بهذا الكتاب الذى ألفه وأسماه كتاب « الإنشاء » وجعل همه فيه أن يضع نماذج – من قلمه – من المخاطبات والرسائل الإخوانية ، والخطب ، والإجازات العلمية ، والكتابة الديوانية ، وشروط كتابة الوثائق والصكوك . فهو يضع دستوراً للكتابة فى عصره ويعززه بالنماذج الكثيرة التى وضعها بقلمه هو . وهى محاولة تدلنا على مبلغ اهتمام الرجل بتطوير وسائل التعبير وأساليب الكتابة فى عصره . كما تدلنا على أن الرجل أحس بأنه صاحب رسالة فى هذا السبيل . ولا شك أن انحدار الأساليب ، وانحطاط الكتابة فى أواخر القرن الثامن عشر حتى مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م كان باعثاً للشيخ العطار على أن يجدد لها من الرسوم ، ويجدد لها من المعالم ما تغدو به متطورة مع العصر . ولا نزعم أن العطار كان مجدداً بالمعنى المعروف فى التجديد ، ولكنه كان شيخاً متنوراً أحس أن فى طريقة الكتابة فى زمانه ما يحتاج إلى تخطيط وترشيد . فوضع للمتأدبين وشداة الأدب نماذجه فى الإنشاء ، على أن لا يقلدوها ويرددوها ، كما كان يقلد ويردد خطباء المساجد تلك الخطب المنبرية التى كانت مجموعة فى مصنفات ، كخطب ابن نباتة مثلاً ! لا ! لم يرد العطار محاكاة عمياء ، ولكنه وضع بين يدى الطالب ما يعينه على

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٢) تجد نماذج لهذا الشعر التعليمى فى صفحات ٦ – ٣٤ – ٥٨ – ٨٥ – ٦٣ – ٧٠ – ٧٥ – ٨٧ من حاشية العطار على الأزهرية .

تقويم عبارته ، وتحسين كتابته ، وإثرائها بالمثل الشرود ، والشعر المستشهد به ، والسجعة اللطيفة ، والفقر الظريفة ، حتى تكون ذخيرة للمتأدب يأخذ منها ما يريد حيث يريد .

وبالطبع لم يستطع العطار أن يخرج على رسوم عصره فى الكتابة والنثر ، من حيث استعمال السجع ، ومحسنات البديع ، والحلى اللفظية . فهو فى هذا نموذج لرجال العصر كله . إلا أنه تخفف كثيراً من هذه المحسنات والزخارف والأسجاع التى لم يكتب للنثر العربى الحديث التخلص منها إلا بعد أكثر من قرن كامل ، حيث ثار الشيخ محمد عبده ثورته المباركة عليها ، وتابعه الكتاب والمفكرون من بعده .

والحق أن العطار بحكم تنوره ، وصفاء ذهنيته ، وكثرة رحلاته وجولاته ، واتصاله بالفرنسيين ، واطلاعه على كتب الغربيين المترجمة ، استطاع أن يتحرر من كثير من الأصفاد التى كانت تكبل الأقلام فى ذلك الزمان . واستطاع أن يوازن باعتدال بين طرائق التعبير التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ، واستطاع أن يُنزل الكلام منازله رعاية لمقتضيات الأحوال . فتراه يسجع حين يكون السجع حلية فى الكلام ومزية لا يستغنى عنها ، ولا يحلو إلا بها . . . وتراه يترسل ترسلاً واضحاً شائقاً حين لا يكون هناك معدى عن إرسال الكلام . . . ويبدو ذلك جلياً فى استطراداته اللامعة الذكية التى كان يرسلها فى حواشيه وكتبه من حين إلى حين . فحين لاحظ على شيوخ الأزهر إعراضهم عن كتب المتقدمين ، أخذ يلومهم فى موطن من حاشيته المشهورة على «شرح جمع الجوامع» فى أصول الفقه قائلاً فى أسلوب مرسل دقيق : (إن من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا — مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية — لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها . حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع . وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية . ثم هم — مع ذلك — ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ، ولطائف المحاضرات . ومن نظر فى ذلك ،

وفيما انتهى إليه الحال فى زمان وقعنا فيه ، علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم . فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا . وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم فيها ! ...)[1].

ومن استطرادات العطار المرسلة فى غير سجع ولا تكلف قوله فى الحريق الذى حدث بالقلعة سنة ١٨٢٣ : (. . . والحريق الذى بالقلعة وبها أمكنة فيها بارود ، فهدم البارود معظمها ، وأهلك خلقاً كثيراً وحيوانات وأمتعة . وارتجت منه مصر مرتين ، مرة بعد المغرب ، والثانية فى أول الساعة الخامسة ، بل تحدث الناس بوصول هذه الرجة إلى القرى البعيدة . وعجز الناس عن إطفاء النيران تلك الليلة . ثم فى اليوم الثانى تكاثرت الدولة والناس وأخذوا فى إطفائها ، وقد استمرت ليلتين ويومين ، ولولا لطف الله وعنايته ورحمته بالأمة المحمدية لهلكت مصر برمتها وأهلها ، بل وتعدى ذلك إلى كثير من القرى ، كما أخبر بذلك أهل الخبرة)[2] .

ورسالة العطار التى وصف بها الطاعون فى الصعيد وبعث بها إلى الجبرتى المؤرخ هى نموذج آخر لهذا النثر المرسل الذى كان يرسله الرجل بلا تكلف ولا قيود[3] . والواقع أن الرجل كان يتحرر من السجع والمحسنات والزخرف فى رسائله الخاصة أو استطراداته فى كتبه . أما الرسائل التى وضعها فى كتابه (الإنشاء) على أنها نموذج للنثر ، فقد تعمد فيها السجع والحلية ، كما ذهب فى بعضها أحياناً مذهب التكلف . وتمثل رسالته التى جعلها (لكاتب بليغ) لوناً من صنعته البيانية فى أدب الرسائل . فقد جعلها نموذجاً لما يكتب إلى كاتب بليغ ، كما جعل نماذج لما يكتب ويرسل إلى رجال القضاء وشيوخ الطرق ، والأمراء والقواد ، والولاة . ونسوق هنا بعض رسالته إلى « كاتب بليغ » ومنها نستخرج

---

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع — ج ٢ — ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) حاشية العطار على شرح الحبيصى — ص ١٣٨ .

(٣) انظر هذه الرسالة قبل هذا فى الفصل الذى عنوانه : وصاف الأوبئة .

قواعد طريقته فى الكتابة الإنشائية : (سلام عاطر الأردان ، تحمله الصبا سارية على الرند[1] والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد ، صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلى بها معصمه وجيده ، الذى موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كنز المعارف عقد درر الفوائد ، الذى إذا أجرى أقلامه فى ميدان الطروس . أودع فيها من لآلئ البيان ما يفعل بالنفوس ، فعل حميا الكؤوس ، من معان حيرت المعانى ، وفعلت بالألباب ما لا تفعله المثالث والمثانى . . .) . ولا نجد أصدق حكماً على أسلوب العطار مما قاله الأديب سامى بدراوى : (ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ . فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير وليس غاية فى ذاته . ومع ذلك فهناك فى بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموماً . ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبى ، أو الكلام فى فلسفة الأدب ، ويقل فى مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه ، ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً)[2].

وهذه النتيجة التى انتهى إليها هذا الأديب الذى اهتم بالعطار هى أقصى ما يمكن أن نصل إليه من نتائج صحيحة حول نثر العطار .

ولا يقال إن العطار كان ذا شخصية مزدوجة فى كتاباته ، فالرجل بسيط سهل فى تعبيره ، وهو مترسل قريب الأداء ، ولكنه جعل كتابه فى (الإنشاء) نموذجاً لعشاق الأسجاع والمحسنات ، حتى يكونوا من تعبيراتهم على أسلوب سواء .

٣ ـ الفلكيات وعالم الفلك

لقد جمع حسن العطار إلى شهرته فى العلوم الشرعية والشعر والكتابة شهرة فى الاشتغال بالعلوم الفلكية . ولم يكن مجرد مطلع عليها ، بل كان متمكناً

---

(١) الرند نبت طيب الرائحة ، والبان شجر معتدل القوام .

(٢) مجلة المجلة عدد ٩٩ .

منها ، متعمقاً فيها ، مشتغلاً بآلاتها ، عاملاً فيها . ويذكر لنا أحد مترجميه (أنه كان عالماً بالفلكيات ، له فى ذلك رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية)[١].

ولم يكن الاشتغال بالفلك وعمل المزاول غريباً على مشايخ ذلك العصر. فالجبرتى المؤرخ يذكر لنا كيف كان والده الشيخ حسن الجبرتى متمكناً من علوم الفلك ، وكيف قصده الوالى العثمانى أحمد « باشا » كور بعد ما سمع عن علمه ليطالع عليه كتب الفلك والحساب ، وليشتغل عنده برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها[٢] . كما يذكر لنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٠٣ هـ وفاة العالم الماهر الشيخ مصطفى الخياط الذى برع فى التقويم وحل الأزياج وتحويل السنين ومظنات الكسوف والخسوف ، واستخراج أوقاتها وساعاتها ودقائقها ، مع الضبط والتحرير وصحة الحدس ، وعدم الخطأ (وكان يستخرج فى كل عام دستور السنة من مقومات السيارة ، ومواقع التواريخ ، وتواقيع القبط والمواسم والأهلة ، ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة ، وينقل منها نسخاً كثيرة يتناولها الخاص والعام ، يعملون منها الأهلة وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية والتواقيع والمواسم وتحاويل البروج وغير ذلك)[٣].

وكان العلماء فى ذلك العصر لا يكتفون بمطالعة مصنفات الفلك ، بل يذهبون خطوة أبعد فى التطبيق العملى . فقد كان للشيخ أبى عبد الله التاودى عالم المغرب ولدان أحضرهما معه إلى مصر ، ثم تركهما فترة من الزمن فى رعاية الشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا ، وكانا رفيقين لعبد الرحمن المؤرخ ، ومعهم الشيخ أحمد السوسى ، وسالم القيروانى ، ويحدثنا المؤرخ عن ذكرياته معهم قائلاً : (فكنا نطالع معهما سوية ، ونسهر غالب الليل ، نراعى المطالع والمغارب ، وممرات الكواكب بالسطح حذاء خيط المساترة ، ونراجع الشيخ — يريد والده

---

(١) تاريخ الصحافة العربية — لفيليب طرازى — جـ ١ ص ١٢٩ .

(٢) الجبرتى — طبع اللجنة جـ ٢ ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١١٥ .

الجبرتى الكبير — فيما يشكل علينا فهمه ، وهو معنا فى ناحية أخرى . . .)[١].

وقد أتيح للشيخ حسن العطار أن يطلع على آلات الفلك والرصد عند الفرنسيين ، كما اطلع عليها صديقه وصفيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وإذا كان الجبرتى قد وصف لنا — بعد معاينة وخبرة — الآلات الفلكية عند الفرنسيس ، المتقنة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، العالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموه ، والنظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها[٢] — فإن حسن العطار أيضاً يذكر لنا فى مقامة له أنه اطلع عند الفرنسيين على كتب كثيرة فى العلوم الرياضية والأدبية ، كما اطلع على آلات فلكية وهندسية[٣] .

وإذا كان عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشتغل بالفلك قد حزن وأسف أشد الأسف عندما ثار العامة بمصر على الفرنسيين وخاصة على المسيو (كفريلى) الذى كان يسكن فى بيت مصطفى كاشف طرا ، فنهبوا الدار ، وقتلوا بعض من بها من الفرنسيين ، وكان مما نهب وحطم كثير من آلات الصناعة ، والنظارات الغريبة ، والآلات الفلكية والهندسية مما هو معدوم النظير ، وكل آلة من هذه الآلات لا يعرف قيمتها إلا من يعرف صنعتها ومنفعتها — إذا كان الجبرتى قد أسف لذلك الحادث الذى كانت نتيجته تحطيم عدد من تلك الآلات الثمينة ، فلا شك أن العطار لم يكن أقل منه أسفاً ، لأنه كان أدرى بقيمة هذه الآلات ، وما تقدمه للعلم من منافع .

٤ — الاهتمام بالدراسات الأدبية

استطاع العطار أن يكتسب صفة الأديب بالإضافة إلى صفة العالم الفقيه . والحق أنه كان على تمكنه فى علوم الشريعة وأصول الفقه والتوحيد ذا ميول أدبية

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

(٣) المجلة عدد ٩٩ .

واضحة . فلم يكن فيه تزمت الشيوخ وتنطع الفقهاء ، وجمود علماء الشرع ؛ بل كان شيخاً رحب الأفق ، لطيف الحس ، رقيق الذوق ، وكان له مجال واسع فى كتب الأدب والأسمار والمحاضرات والأشعار . ولم يكن يرى أن الأدب من علوم البطالة ، وموضوعات الفراغ . ولكنه رأى الأدب ضرورة لترقيق النفس ، وإرهاف الحس ، وسلامة الذوق ، وصحة الحكم . وهو بهذا أسبق الشيوخ الذين وجهوا الاهتمام بالأدب فى الأزهر وجهة جديدة . ولم يكن العصر حينذاك يسمح للعطار أن يجرؤ على تعديل برامج التعليم فى الأزهر وإدخال بعض المواد الحديثة ، فقد كان الخروج على المألوف حينذاك جريمة لا تغتفر . ولكن العطار استطاع برفق أن يدخل فن الكتابة فى دروسه بالأزهر ؛ وفن الكتابة — كما يقول هو — يجرى من العلوم الأدبية مجرى الثمرة من الدوح[1] . وفتح بيته لرفاعة الطهطاوى ليتلقى عنه دروساً فى الأدب والتاريخ[2] والجغرافية .

وإذا كان العطار لم يعط فى الأزهر دروساً فى الأدب والشعر ، مخافة أن يصدم شعور قوم كانوا ينفرون من أمثال هذه الفنون التى كانوا يعدونها بدعة ، فإنه استطاع برفق ولباقة كذلك أن يوعز إلى تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، المدرس الشاب الحديث عهد بالتدريس فى الأزهر ، بأن يعطى دروساً فى الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب . ولعل العطار بهذا الإيحاء والإيعاز إلى تلميذه الطموح كان يجس نبض الشيوخ ، ويجس نبض المحافظين على وجه العموم . وبفضل هذا التوجيه الأدبى من الشيخ حسن العطار إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى استطاع الإصلاح فى الأزهر أن يسجل أول حركة فى الدراسات الأدبية والشعرية فى صحن الجامع الأزهر .

والواقع أن الأزهريين فوجئوا حين رأوا شيخاً شاباً — هو عياد الطنطاوى — يترك التدريس فى كتب الحديث والفقه ، ويختار للتدريس ميداناً آخر لم يألفه الشيوخ ، وهو تدريس مقامات الحريرى ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وقراءة

---

(١) الإنشاء — لحسن العطار — ص ٢ .

(٢) حلية الزمن : لصالح مجدى بك ص ٢٥ .

شرح الزوزنى للمعلقات[١] .

على أن هذه القراءات الأدبية الشعرية قد سبقتها دروس فى فن الإنشاء والكتابة كان يلقيها الشيخ حسن العطار نفسه على طلبته بالأزهر . وفى هذه الدروس بعد بهم الشيخ عن مسائل الفقه ومناقشاته واعتراضاته إلى حكايات وطرائف ومحاضرات ، ونوادر أدبية ، وشواهد شعرية ، ولطائف فقرات ، وما يتبع ذلك من كنايات وأمثال . وقد كان كثير من الطلاب يفرون من دروس الفقه الجامدة ، ودراسات الأصول الجافة إلى حلقات العطار التى كانت أشبه بالندوة الأدبية المتشعبة الأطراف .

ولقد فتح العطار عيون الأزهريين على ذخائر من التراث الأدبى عند العرب . ففى خلال بعض حواشيه ، حتى فى المنطق والنحو ، كان يهدى طلابه إلى مثل كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى وإلى ما فيه من روائع الشعر الذى يعد ميراث العرب الباقى . وتراه فى حاشيته على شرح الخبيصى يشيد بالشعر ثم يتطرق إلى التوصية بقراءة « الأغانى » قائلاً فى نص عبارته : (وشجعان العرب فى الحروب تتمثل بالأشعار ، وتلتى نفسها عند ذلك فى مهالك الأخطار ، فلا تبالى بمواقع السيوف ، ولا بوارق الحتوف ، وفى جميع ما ذكرناه حكايات ونوادر شحنت بها الكتب والدفاتر ، ومن أراد الاطلاع على غرائب هذا الباب فليطالع كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وهو كتاب جليل كبير يحتوى على عشرين مجلدة . . .)[٢] .

أرأيت كيف انقطع عهد الناس بالأدب والشعر خلال ثلاثة قرون من الحكم التركى ، وضاعت معرفتهم — حتى الشيوخ والعلماء منهم — بكتاب مثل كتاب الأغانى ، ثم يجىء الشيخ حسن العطار فينادى بأعلى صوته على هذا الكتاب وعلى أضرابه من كتب الأدب والشعر التى ترهف الإحساس ، وتلطف الشعور ؟ .

وحين كان الجبرتى المؤرخ وصديق العطار يرى الاشتغال بمسائل الفقه

---

(١) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى — ص ٣١ .
(٢) حاشية العطار على شرح الخبيصى ص ٢٥٨ .

وعلوم الشرع أبقى ثواباً ، وأحسن مآباً ، كان العطار يرد عليه : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً ؟

الحق أن العطار كان موجهاً إلى الدراسات الأدبية بإيحاءاته إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى المدرس بالأزهر أولاً ، وبدروسه فى الإنشاء والكتابة الأدبية ثانياً ، وبالروح العامة التى خلعها على مجالس الأدب فى أوائل القرن الماضى ثالثاً ، وهى روح أضفت عليه من صفات الشعر والأدب فوق ما أضفته عليه من صفات العلم والفقه . حتى ليعد أحد ثلاثة كانوا أشهر شعراء وقتهم فى أول القرن التاسع عشر ، وهم : السيد إسماعيل الخشاب ، وحسن العطار ، والسيد على الدرويش . ومن عجب أن هذا العالم الأزهرى الأصولى الفقيه لا يعد فى علماء ذلك العصر قدر ما يعد فى شعرائه وأدبائه .

إن مشيخة الأزهر لم تصنع من حسن العطار شيئاً غير العمل الرسمى الرتيب ، أما الشعر والأدب فقد صنعا من العطار كل شىء . . . كما صنع تلميذه الطنطاوى من الأدب حلقات جديدة فى الأزهر لم يكن له بها عهد من قبل . . . ويكفى العطار فضلاً أنه هو الذى وجه تلميذه رفاعة الطهطاوى إلى دراسة الأدب ، ففتح ذلك ذهنه إلى البحث والتفكير ، وأعده لرسالة القيام بالنهضة الحديثة التى تولاها رفاعة على أحسن الوجوه . . .

٥ ـ المنبه لحركة الإصلاح

لعل صوت حسن العطار هو أول الأصوات العربية التى انطلقت من داخل الأزهر منادية بتغيير كتبه وإصلاح برامجه وإدخال العلوم العصرية فيه . وقد سبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربى هو المرحوم أحمد « باشا » كور الوالى العثمانى بمصر ، الذى شعر بنقص التعليم فى الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والمعقول وعلوم الوسائل كالنحو والصرف والمنطق ، ونبذهم لعلوم المقاصد — كالعلوم الرياضية — مع ضرورتها لتقدم الأمم وقوتها . ولا يلام أحمد « باشا »

كور على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة على علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضى الفلكى الشيخ حسن الجبرتى يتذاكر معه علوم الرياضة والفلك ويتعلم معه عملياً صنع المزاول . . . فما كان ينتظر من مثل هذا الوالى التركى أن يفعل للأزهر أكثر من هذا ، وخصوصاً أن اهتماماته بالعلوم الرياضية كانت اهتمامات شخصية لم ترتفع إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين . ولا يلام كذلك الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عهد ولاية أحمد « باشا » كور على مصر لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلوم العصرية فيه ؛ فإن الجو لم يكن مهيأ فى ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ .

وقد حدثت حادثة أحمد « باشا » مع شيخ الأزهر الشبراوى قبل مولد الشيخ حسن العطار بعشرين عاماً أو تزيد قليلاً . ولا شك أنها كانت تتردد سيرتها بين جنبات الأزهر لما فيها من طرافة وغرابة . ولا شك أن العطار سمع بها وهو طالب بالأزهر أو وهو مدرس فيه . ولا شك أنها أثرت فى نفسه ، كما أثر فيها اتصاله بالفرنسيين واطلاعه على كتبهم ، وآلات معاملهم ، وأجهزة أرصادهم . ومن هنا قامت فى نفسه المتحركة المتطلعة عوامل التنبه نحو إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد جملة . وما أصدق على مبارك وهو يتحدث عن حسن العطار قائلاً : (واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ، ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . . . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — يعنى الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة) . (١)

وما تحمل عبارة رائد من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله عبارة حسن العطار التى يقول فيها « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من

---

(١) الخطط التوفيقية — لعلى مبارك — جـ ٤ ص ٣٨ .

المعارف ما ليس فيها» . ولقد كان الرجل أشجع الشيوخ بل أشجع المصريين جميعاً حين نادى بهذه العبارة التى انتبه لها الوالى محمد على حين ألقت إليه الأقدار حكم البلاد . ولا شك أن محمد على كان يسير على ضوء هذه العبارة فيما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استحدثه من نظام البعثات التعليمية التى أوفدها إلى الخارج — وخاصة فرنسة — حتى يساعد أعضاؤها — حين إتمام دراستهم هناك — على (تغيير أحوال البلاد ، وتجديد المعارف التى ليست فيها) وفقاً لتوجيهات حسن العطار ورغباته فى إصلاح البلاد .

وإذا كان حسن العطار لم يوفق فى إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد ، فأنه قد رزق حظًّا كبيراً من التوفيق فى الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ؛ فالمدارس العالية الفنية التى أنشئت بمصر فى ذلك العهد — كالهندسة والطب والصيدلة والألسن — هى الاستجابة الحقيقية لدعوة حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الأحوال فى البلاد . والكتب التى ترجمت بالمئات فى عصر محمد على هى الصدى المحقق لأمنية حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين فى الرياضة والعلوم والآداب . وإذا كان رفاعة الطهطاوى صاحب فضل كبير ويد طولى فى حركة ترجمة الكتب فى عصر محمد على ، فإنه بلا شك قد تأثر فى هذا بآراء شيخه العطار ، وسمع منه قوله : (ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات ، انكشفت له حقائق كثير من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهوم) [1] .

والعلوم التى يقصدها العطار ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التى فقد الرجل ثقته بها ، وإنما هى علوم الفرنسيين التى شاهدها هو والجبرتى وغيرهما من العلماء فى وقت الحملة الفرنسية ، ثم واتته الفرصة بأن يؤكد لمحمد على ضرورة إرسال البعوث العلمية فى طلبها ، ولم يكتف بهذا بل أوصى الوالى محمد على بأن

---

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع — ج ٤ ص ٤٦١ .

يعين لإمامة أعضاء البعثات فى باريس تلميذه وصفيه رفاعة الطهطاوى ، الذى عين ناظراً لمدرسة التاريخ والجغرافية التى أنشئت سنة ١٢٥٠ هـ ، فناظراً لمدرسة الألسن التى أنشئت بعد ذلك بعام واحد[١] .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن مطامح حسن العطا نحو التقدم العلمى والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات كما يذكر أحد المؤرخين المعاصرين[٢] . وإنما كانت توجيهات وتنبيهات . وفرق كبير بين التنبؤ والتنبيه ، فإن التنبيه يدل على الإيجابية من صاحبه . ولم يقصر العطار عن أن يكون إيجابياً فى دعوته . فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث فى الأزهر كان يختص نفراً من تلاميذه الأدنين ليقرأ لهم كتب التاريخ والجغرافية والأدب وهى محظورة فى الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما نصادفه فى كلام على مبارك عن رفاعة الطهطاوى حيث يقول : (وكان له — رحمه الله — منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطا ، فكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر)[٣] .

والذين ينسبون كثيراً من الفضل إلى محمد على بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوربا على غير مثال سبق فى الحكومات الشرقية ، ويزعمون له العبقرية فى هذا الصنيع ، ينسون فضل الشيخ حسن العطار فى توجيهه محمد على إلى هذا السبيل . فقد كان مقرباً منه ، وكان الوالى يثق فيه ، ويطمئن إليه ، ولا شك أنه سمع منه كثيراً ترديده لنغمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، وقوة المعرفة الفرنسية وغزارتها ، فالتقط محمد على بذكائه هذه الفكرة وحورها بأن جعل الطلاب المصريين ينتقلون بجملتهم إلى ديار العلم بأوربا — وخاصة فرنسا — ليرتشفوا العلم من مناهله .

وإذا كانت الوثائق الرسمية تغفل دائماً فضل أصحاب الفضل من غير الحكام ،

---

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

وتحجبهم حتى تفسح المجال لظهور الولاة والحاكمين ؛ فإن دلائل الأحوال ، وشواهد الأقوال تدل على أن فضل الشيخ حسن العطار فى هذا السبيل لا يحجبه نكران ، ولا يطمسه نسيان . . .

٦ ـ منهج فى التأليف

يمتاز الشيخ حسن العطار بمنهج فى التأليف يبدو واضحاً فى كتبه الكثيرة التى كان أكثرها حواشى وشروحاً وتعليقات على كتب أزهرية مشهورة متداولة بين أيدى الطلاب . فما تميز به الشيخ هذه الدقة فى التعريفات ، بل الدقة فى كل عبارة يقولها . ولعل هذه الدقة جاءته من عقليته المنطقية المنظمة التى ظهرت فى اهتماماته بشروحه على كتب المنطق وحواشيه عليها ، وخاصة حاشيته على شرح التهذيب . والتهذيب هو المختصر الذى ألفه العلامة سعد الدين التفتازانى فى المنطق . ففى حواشيه وتعليقاته الثمينة نراه واقفاً للمؤلفين الأصليين بالمرصاد ، يصحح أوهام عباراتهم ، ويحدد معانى ألفاظهم تحديداً دقيقاً . فإذا قال النحوى الشيخ خالد الأزهرى مثلاً أن (الألف) من الحلق ، عقب عليه العطار قائلاً إن هذا القول فيه تسمح ، لأن الألف من الجوف . . . وإذا قال الشيخ خالد إن اسم الفعل من أجزاء الكلام التى يتركب منها ، وهى الاسم ، والفعل ، والحرف ، استدرك عليه العطار موضحاً بأن اسم الفعل قد يكون ماضياً ، مثل هيهات بمعنى : بعد ، ومضارعاً ، مثل : أف بمعنى : أتوجع ، واسم فعل أمر ، مثل : صه : بمعنى : اسكت [1] .

ويميل العطار فوق دقة التعريف إلى النظرة الموسوعية فى مصنفاته ، أو إلى الشمول والإحاطة فى المسائل ، بدلاً من الاقتصار والاختصار . فإذا قال نحوى بأن التنوين أربعة أقسام : تنوين التمكين ، وتنوين التنكير ، وتنوين المقابلة ، وتنوين العوض ـ عقب عليه العطار قائلاً بأن (أقسام التنوين عشرة ، ونحن

---

(١) حاشية العطار على شرح الأزهرية ١٤ ـ ١٥ .

نتمم لك البقية إجمالاً . . .) ثم يأخذ فى حصر بقية أقسام التنوين[١] .

وإذا ذكر أحد النحاة اسم (أحمد) على أنه علم ممنوع من الصرف لم يكتف الشيخ حسن العطار بهذا بل يزيد فى التعريف فيقول إن اسم أحمد لم يتسم به أحد قبل النبى صلى الله عليه وسلم : وأما « محمد » فقد تسمى به قبله جماعة قيل إن عددهم أربعة عشر ، أو خمسة عشر[٢] . فهو هنا لا يحصر نفسه فى دائرة النحو والعلل النحوية ، بل ينطلق إلى معارف من التاريخ والأدب وغيرها .

ولا يقف العطار فى مصنفاته وحواشيه وشروحه عند حد التقرير والتفسير ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى التعقيب على المؤلفين وتصويبه لهم . ففى المنطق إذا أهمل مؤلف مثلا لفظة « فقط » استدرك العطار عليه منادياً بضرورة إضافة هذه الكلمة حتى يكون مفهوم الجملة كلها أدق[٣] . . . وتراه يناقش العلماء فى نصوص عباراتهم بما يجعلها أقرب إلى الدقة التامة . كمناقشته لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ فى شرحه لإيساغوجى فى المنطق[٤] . وهو فى حواشيه لا يسكت على الأخطاء النحوية واللغوية التى قد يقع فيها المصنفون سهواً أو لبعض الاعتبارات . فإذا قال شارح التهذيب فى المنطق بأن (القضايا الموجهة التى يبحث عنها وعن أحكامها من العكس والتناقض خمسة عشر . . .) وقف له حسن العطار بالمرصاد يعلق على صيغة العدد هنا قائلاً : (لا يخفى أن المعدود هنا مؤنث ، وهو « قضية » ، فكان يجب تجريد « خمسة » من التاء ، لأنها تجرى على خلاف القياس ، ويجب إلحاق التاء لعشر لأنها عند التركيب تجرى على القياس . . .)[٥] ثم يعود العطار فيلتمس تحليلاً لهذا الخطأ فى صيغة العدد قائلاً : (وقد يوجه إلحاق التاء بخمسة هنا ، بأن المعدود محذوف) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح التهذيب فى المنطق – ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

وهو التماس يجد له العطار مستنداً من أقوال النحاة . . .

ويلفت النظر فى مؤلفات العطار ميله إلى الإطالة فى كثير من تعليقاته . وهو لا يرمى من هذه الإطالة إلا إلى توضيح المعنى فى ذهن قارئه . وقد يدرك هو نفسه أنه إطال ، وأنه ربما أسأم القارئ وأضجره ، فتراه يقدم من الأعذار والاعتذار ما يدل على رقة شعوره . كما فعل فى تعليقه على إحدى المقولات فى المنطق ، ولم الشوارد الكثيرة حولها . فاعتذر من ذلك قائلاً : (وقد نظمنا فى هذه المقولة الشوارد الكثيرة الفوائد. فلاتسأم من الإطالة ، ولا تتشك الملالة :)[1]

أما « الاستطراد » فهو ظاهرة تلفت النظر فى مصنفات العطار ، والواقع أن الرجل كان موسوعى الذهن ، متعدد جوانب الثقافة . فتراه يستطرد فى خلال الكلام من موضوع إلى موضوع ، ولكنه استطراد لا يمل قارئه ، بل قد يكون فيه فائدة ومتاع عظيمان . ولا نسوق هنا غير نموذج واحد من عشرات النماذج التى صادفتنا فى كتبه . فلما فرغ من التعقيب على باب « التصورات » فى المنطق ، وانتقل إلى باب « التصديقات » ختم البحث بسرد طائفة من الأخبار والحوادث التى وقعت بمصر . ولم يكن إتيانه بهذه الحوادث حشواً أو لغواً ، ولكنه رأى أن يمهد لنفسه العذر حين أسكتته الحوادث عن متابعة حواشيه وتقازيره على كتاب المنطق . فإنه بعد أن سرد أنباء المطر الشديد ، والحريق الهائل بالقلعة ، والطاعون بمصر ، ختم الكلام بقوله : (واجتماع هذه الأسباب هو الذى أوجب لى الوقوف عند هذا القدر ، فإن انجلى هذا الحادث ، وكان فى العمر بقية ، شرعنا فى القسم الثانى مستمدين الإعانة من الله ، وإن كنا من الذاهبين مع هذا الوفد ، فعسى أن يأتى بعدنا من يوفقه الله للإتمام . . .) [2] .

وقد تنبه لمثل هذا الاستطراد المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى وهو يكشف عن استطراد العطار فى بعض المواضع من حاشيته على (شرح جمع

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

الجوامع) إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين[١] . . وإلى مدح كتب الفرنسيين والأجانب المترجمة إلى اللغة العربية[٢] .

ويمتاز حسن العطار فى تأليفه بالتحقيق ومقابلة النسخ الخطية من الكتاب الواحد ؛ وهو منهج سليم فى التأليف ، فقد رجع بعض العلماء المناطقة إلى نسخ من كتاب عبد الحكيم السيالكوتى[٣] فى المنطق ، وهو حاشيته على شرح القطب الرازى على الشمسية ، ونقلوا بعض عباراتها محرفة مما ترتب عليه خطأ فى فهمهم . ولكن العطار فطن إلى هذا الاضطراب فى النسخ ، ويحمد الله على أن وفقه إلى الحصول على نسخة خطية صحيحة جداً ، وندعه هنا يقول بنص عبارته : (. . وأصل نسخ عبد الحكيم كلها محرفة ، فنقلها — يعنى بعض العلماء — بما فيها من التحريف والتصحيف . وقد منّ الله على الفقير بنسخة من عبد الحكيم صحيحة جداً ، قدم بها رجل فاضل من بخارى ، فصححنا عليها نسخة مصرية ، وعليها اعتمدت فى النقل . . .)[٤]

ومن مقابلات العطار الذكية لنسخ المخطوطات ما لاحظه على بعض نسخ « التهذيب » للعلامة التفتازانى من وجود نقص فى بعضها ، وزيادة فى بعضها الآخر . فحين جاء « الخبيصى » ليشرح التهذيب لم يتناول الموضوع الناقص لأنه بالطبع — ليس فى نسخته — فلاحظ الشيخ حسن العطار هذا ، واستنتج أن النسخة التى وقعت للشارح ليست من النسخ التى ألحق بها المؤلف الأصلى بعض الزيادات والإضافات ، كما رجح الاحتمال بأن تكون هذه الزيادات ليست من عمل المؤلف الأصلى : التفتازانى ، ولكنها (من إلحاق البعض)[٥] .

---

(١) تاريخ الإصلاح فى الأزهر — لعبد المتعال الصعيدى ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندى البنجابى من علماء المسلمين فى القرن الحادى عشر الهجرى . اشتغل بالمنطق ، والبلاغة والعقائد ، وله حاشية على تفسير البيضاوى . توفى سنة ١٠٦٧ هـ .

(٤) حاشية العطار على شرح الخبيصى — ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وفى سبيل التحقيق وتوثيق المخطوطات والمقابلة بين النسخ ومعارضة بعضها ببعض كان العطار لا يضن بمال ولا جهد . فمن أجل حاشيته فى المنطق اضطر إلى الاطلاع على مخطوطات ثمينة تتصل بالموضوع ، فحصل — مثلاً — على نسخة خطية من كتاب [١] « شرح سلم العلوم » ، والسلم كتاب فى المنطق لمحب الله البهارى المتوفى سنة ١١١٩ هـ . وممن شرح سلمه العلامة الهندى اللكنوى عبد العلى محمد بن نظام الدين المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

٧ — الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب

عقدنا فى كتابنا عن « المقرى صاحب نفح الطيب » فصلاً — نظنه مفيداً — عن الإجازات العلمية وطريقة منحها من العلماء ، يرجع إليه من شاء من القراء . وقد ظلت الإجازات من الشيوخ إلى تلاميذهم جارية إلى عصر الشيخ حسن العطار ، بل بعد عصره بعشرات من السنين . ولا نزال نذكر الإجازة التى كتبها الشيخ محمد الأشمونى لتلميذه الشيخ حفنى ناصف سنة ١٣١٦ هـ — سنة ١٨٩٨ م [٢] . ولما كانت الإجازات تحتاج — من وجهة نظر الكتابة الفنية — إلى مراسم وقواعد وأصول لكتابتها والتفنن فيها ، فقد رأى حسن العطار أن يصنع نموذجاً منها فى كتابه « الإنشاء » [٣] حتى ينسج العلماء والأساتذة على منواله حين يمنحون الإجازات لتلاميذهم !

على أن العطار فى كتابه « الإنشاء » قد سجل بعض إجازاته الواقعية — لا النموذجية — التى كتبها لبعض طلبته . كإجازته إلى سيدى العربى الدمناتى كاتب سلطان المغرب ، الذى كتب إلى شيخه العطار يستدعيه ، أو يطلب منه

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٢ .

(٢) ترى صورة من هذه الإجازة فى كتاب « الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى » — للمرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد — صفحة ٣٦ .

(٣) إنشاء عطار ص ٥٣ .

أن يمنحه إجازة ، ففعل ! ونسجل هنا — من باب التاريخ — كتاب الاستدعاء الذى بعثه الدمناتى المغربى إلى الشيخ حسن العطار ، وفيه يقول : (يا رب الذكاء الرائع ، وحامل العلوم التى سد بها الذرائع ، والمطيل بلسانه فى حفظ علوم الشرائع ، المستولى على المعرفة والفقه والفرائض ، ومذلل جناح الأصول إذا لم يذللها رائض ، وأستاذ العربية والحساب ، وخائض بحر المنطق الذى اكتسب به الإدراك أى اكتساب ، ملاك الأوطار ، أبا على السيد حسن بن محمد العطار ، نداء مستجيز ، بالاستدعاء الوجيز . ذا فضلكم وما خولكم الله من إحسان ، لا يفى به قلم ولا لسان . . .)[1] . وقد استجاب العطار لاستدعاء الرجل بالإجازة . ولم يكتف بأن تكون إجازة نثرية ، بل توجها بقصيدة من الشعر يقول فيها :

طلبت إجازة منى ... وإنى لحائف الرجل فى هذه المفازه
ومالى إن منعتكها اقتدار ! ومالى إن منحتكها إجازة !
وكيف أجوز فى ميدان قوم حقيقة فضلهم أرجو مجازه ؟

وقد حفظ لنا مؤرخ القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ عبد الرزاق البيطار صورة الإجازة التى كتبها الشيخ حسن العطار لوالده الشيخ حسن البيطار حينما كان المترجم له نازلاً بدمشق بعد رحلة إلى بلاد تركية وألبانيا ، وتعد هذه الإجازة وثيقة تاريخية هامة ، ومصدراً من مصادر الترجمة للعطار ، لاشتمالها على أسماء شيوخ العطار أولاً ، ولاحتوائها على أسماء مؤلفاته التى كانت له حتى سنة ١٨١٥ م ، وهو العام الذى عاد فيه إلى مصر بعد رحلاته الطويلة ، وغيبته المتصلة .

وتدلنا استجابة العطار السريعة لكل من طلب منه إجازة علمية على روح هذا الرجل فى تشجيع الطلاب على طلب العلم وإقبالهم عليه . فإنه بهذا الصنيع

---

(١) الإنشاء — لحسن العطار ص ٦٢ .

يحبب التلاميذ فى الاستزادة من العلم ، ولا يصدهم عن قصد موارده .

وهذا التشجيع بالإجازات يناصره تشجيع آخر من العطار بتقريظه للكتب . وإذا كان تقريظ الكتب — بل تقريظ القصائد — « تقليعة » العصر فى العصر التركى كله ، بل كان بدعة من بدعه العجيبة ، فإن الشيخ حسن العطار لم يغال فيه إلى الحد المزدول المستثقل . وقد حفظ لنا فى كتابه فى « الإنشاء » نصوص ثلاثة تقاريظ ، أولها على كتاب ألفه شيخ الإسلام التركى عطاء الله أفندى يرد به عقائد قوم مبطلين ، وثانيها تقريظه على ترجمة ألفية ابن مالك بالتركية التى قام بها خيرت أفندى رئيس الكتاب فى دار السلطنة العثمانية فى عصره ، وثالثها تقريظه (على مؤلف لبعض الموالى الكرام ، ألفه فى غلطات الأنام ، وهو حفيد أفندى . . .) [١]

وليس لهذه التقريظات قيمة أدبية ، فقد انتهى عهدها ، وبطلت بدعتها . ولم تكن فى الحق أكثر من مجاملة بين الأدباء والعلماء ، ولم يقصد بها أن تكون ذات قيمة نقدية للعلم والأدب . والحق أيضاً أن العطار لم يسرف فيها ولا فى استعمالها ، وإن كان تلميذه الشاعر محمد شهاب الدين قد غالى فى استعمالها شعراً مغالاة عظيمة ، حتى لقد جعل قسما كبيراً من ديوانه [٢] لهذه التقاريظ التى يعد بها أكبر المقرظين . ومن تقريظات الشاعر شهاب الدين تقريظه لكتاب « القاموس المحيط » حين تم طبعه بالقاهرة سنة ١٢٧٢ هـ .

ويذكرنا تقريظ الشهاب لطبع القاموس بتقريظ الشيخ محمد سعيد السويدى البغدادى لشرح القاموس المحيط للعلامة مرتضى الزبيدى سنة ١٢٩٤ هـ .

ولن نطيل الحديث عن هذه التقاريظ النثرية والشعرية التى لن يعدم القارئ الاطلاع عليها فى مواضع متفرقة من تاريخ الجبرتى ، أو فى دواوين شعراء ذلك العصر ، أو فى كتاب « الآثار الفكرية » الذى أفرد فيه جامعه : أمين فكرى « باشا » باباً خاصاً للتقاريظ النثرية التى كتبها والده الأديب الشاعر الناثر عبد الله

---

(١) المصدر نفسه صفحات ٥٨ ، ٦١ ، ٦٦ .

(٢) انظر ديوان شهاب الدين .

« باشا » فكرى . ولكن الذى نستطيع أن نقوله بحق إن الشيخ حسن العطار لم يسرف فى هذه التقاريظ ، بل التزم فيها حد الاعتدال والقصد ، ولعله رآها كما كانت فى عهده وسيلة للمجاملة وتقارض الثناء بين العلماء والأدباء ، فلم يلجأ إليها إلا بمقدار . . .

٨ ــ آثار العطار ومؤلفاته

لا نجد أوثق من الشخص المترجم نفسه ، حين يعدد لنا بنفسه و بقلمه آ ثاره ومصنفاته . فإنه هو المصدر الذى لا يتطرق إليه شك . ولكن عيب هذه الطريقة أن المترجم له قد يكون سجل مؤلفاته قبل نهاية أجله بزمن طويل أو قصير . وهنا يكون سجل مؤلفاته ناقصاً بقدر ما كتبه بعد ذلك من كتب ومصنفات ؛ كما نجد ذلك عند العلامة المؤرخ السيوطى حين سجل فى كتابه : « حسن المحاضرة » ثبتا بأسماء كتبه التى ألفها ، وهو يترجم لنفسه ترجمة ذاتية ــ أو شخصية [1] ــ فقد كتب الترجمة وسجل مصنفاته قبل وفاته بفترة صنف فيها كتباً جديدة خلا منها ذلك الثبت المهم .

والذى حدث عند السيوطى فى القرن العاشر الهجرى ، حدث عند حسن العطار فى القرن الثانى عشر . فإنه فى إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار ختمها بذكر مصنفاته التى كانت إلى ذلك التاريخ الذى كتب الإجازة فيه وهو سنة ١٨١٥ م . فسقطت بالطبع الكتب التى ألفها بعد ذلك . ويذكر لنا العطار أسماء مؤلفاته على هذا النحو :

١ ــ حاشية شرح قواعد الإعراب .
٢ ــ حاشية الأزهرية ، فى النحو
٣ ــ حاشية العصام على الوضعية للإيجى

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ــ للسيوطى ــ ج ١ ص ١٨٨ .

٤ ــ حاشية شرح إيساغوجى لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى المنطق
٥ ــ حاشية النخبة
٦ ــ حاشية السمرقندية لأبى القاسم السمرقندى فى الاستعارة
٧ ــ حاشية السلم لمحب الله البهارى من علماء القرن الثانى عشر الهجرى
٨ ــ حاشيتان على ولدية المرعشى فى آداب البحث
٩ ــ شرح المنظومة الوضعية
١٠ ــ شرح المنظومة التى فى آداب البحث
١١ ــ شرح منظومة التشريح
١٢ ــ شرح نزهة الشيخ داود فى الطب
١٣ ــ حاشية شرح أشكال التأسيس فى علم الهندسة
١٤ ــ حاشية المغنى فى النحو . وكان وهو بدمشق يدعو الله أن يتمها

ويختم حسن العطار هذا الثبت بقوله : (ولنا رسائل عديدة فى مسائل متفرقة من علم الحكمة والكلام وغير ذلك) [1].

أما الكتب التى ذكرها على مبارك فى خلال ترجمته للعطار ، فلم يذكرها على سبيل الحصر ، بل قال إن له تآليف عديدة منها (١) حاشيته على جمع الجوامع فى نحو مجلدين (٢) وحاشية على الأزهرية فى النحو (٣) وحاشية على مقولات الشيخ السجاعى (٤) وحاشية على السمرقندية فى البلاغة . ورسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ؛ ورسائل فى الرمل والزايرجة والطب والتشريح وغير ذلك .

وذكر له المرحوم أحمد تيمور فى « فهرس الخزانة التيمورية » تسعة من الكتب لا تزيد . وليس فيها من زائد على ما عند البيطار وعلى مبارك إلا هذه الكتب : (١) رسالة فى البسملة والحمدلة (٢) إنشاء الشيخ العطار (٣) حاشية العطار على كتاب التذهيب للخبيصى فى علم المنطق (٤) حاشية العطار على

---

(١) حلية البشر : لعبد الرزاق البيطار ــ جـ ١ ص ٤٩٢ .

جمع الجوامع فى أصول الفقه لتاج الدين السبكى (٥) منظومة العطار فى النحو . وواضح أن هذه الكتب الخمسة هى مما ألفه الشيخ حسن العطار بعد عودته من رحلته إلى مصر سنة ١٨١٥ .

وذكر له جرجى زيدان ستة من الكتب هى : (١) إنشاء العطار (٢) منظومة فى النحو (٣) ديوان ابن سهل الأندلسى (٤) حاشية على شرح الأزهرية (٥) حاشية على السمرقندية فى البلاغة (٦) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، وهو للجبرتى بالأصالة ، وفيه بعض الشعر والنثر للعطار بالمشاركة . وليس فى الكتب التى ذكرها جرجى زيدان زيادة على ما سبق ذكره عند البيطار وعلى مبارك وتيمور إلا ديوان ابن سهل ومظهر التقديس .

ولم يرد فى ثبت مؤلفات العطار عند هؤلاء المحققين ذكر لديوان العطار الذى يقول عنه الجبرتى إنه موجود ، وإن قصيدة : انهض فقد ولت جيوش الظلام ، مسطورة به . وقد فصلنا الكلام عن ديوان العطار قبل هذا فى الفصل الخاص بالعطار الشاعر ، فلن نعيد القول بالتكرار فيه .

ولا بأس أن نقول هنا كلمة عن كتاب « مظهر التقديس » الذى سجله جرجى زيدان فى مؤلفات العطار ، ثم صحح الموقف على التو ، فقال (إنه للجبرتى على ما يظهر وفيه جانب من منظوم العطار ومنثوره) [١] . فالأستاذ خليل شيبوب يصحح الوضع على طريقته بقوله : (ولا شك أن هذين البيتين من نظم الشيخ حسن العطار الذى ضمن هذا الكتاب فصولاً من إنشائه المسجوع ، وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفى التى مدح بها أحمد « باشا » الجزار ، وهى ثمانون بيتاً أو تزيد ، أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً) [٢] .

والأستاذ محمود الشرقاوى يخلص من مقابلته بين مظهر التقديس وما كتبه المؤرخ الجبرتى فى تاريخه المسمى « عجائب الآثار » ، عن دخول الفرنسيين مصر وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، بالنتائج السليمة الآتية ، وهى أن الجبرتى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ — ص ٢٣٢ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى — خليل شيبوب — سلسلة اقرأ ، ص ٨٨ .

فى « مظهر التقديس » (يذكر اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك فى تأليف الكتاب ، فهو يقول فى أوله : إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب : « وسميناه » مظهر التقديس . وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميته » عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول : إنه « لصاحبنا الآنى ذكره » أو « لصاحبنا السابق ذكره » بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار) [1].

والحق أن هذه الملاحظات الذكية والنتائج الواعية جديرة بالاعتبار ، لأنها تصحح الرأى فى كتاب « مظهر التقديس » على أوضح الوجوه .

---

(١) مصر فى القرن الثامن عشر : لمحمود الشرقاوى — ج ١ — ص ٣٦ .